مخطوطات ومطبوعات

تاريخ اليعقوبي

مجلدان في ٩٤٠ ص طبع بمطبعة بريل في ليدن سنة ١٨٨٣

من جملة الكتب العربية التي نشرها الاستاذ هوتسما احد علماء المشرقيات هذا السفر النفيس لابن واضح من اهل القرن الثالث للهجرة وقد عني بطبعه خدمة لاخوانه المشتغلين باحياء آثار المشرق الاسلامي فجاء والحق يقال سادًّا ثغرة مهمة في تاريخ الاسلام وقد وشحه باختلاف النسخ وبفهرس لاسماء الرجال وفهرس للاماكن والبلدان التي ورد ذكرها في متن الكتاب ليتيسر الاطلاع به على الطالب في الحال. والنسخة التي طبع بها الناشر ناقصة من اولها وفيها نقص من بعض اطرافها لا يحول دون الانتفاع بها. ابتدأ المؤلف بذكر شيث بن آدم وبعد ان ذكر [illegible] العرب تاريخ الانبياء تعرض للكلام على ملوك الاسرائيليين وملوك الموصل ونينوى وملوك بابل والهند واليونانيين والروم والفرس وملوك الترك والصين ومصر من القبط والبربر والافارقة والحبشة والسودان ومملكة البجة وملوك اليمن وملوك الشام وملوك الحيرة من اليمن وحرب كندة واديان العرب وحكامهم وازلامهم واشعارهم واسواقهم وبهذا ينتهي الجزء الاول ويبدأ الجزء الثاني بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ الاسلام والخلافة الى ايام احمد المعتمد على الله بعبارة سهلة موجزة. واليك مثالاً من الكتاب تعرف بها طريقة ابن واضح [illegible] في اسواق العرب

«وكانت اسواق العرب عشرة اسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم واموالهم فمنها دومة الجندل يقوم في شهر ربيع الاول ورؤساؤها غسان وكلب اي الحيين غلب قام به ثم سوق المشقر بهجر يقوم سوقها في جمادى الاولى تقوم بها بنو تميم رهط المنذر بن ساوى ثم صحار يقوم في رجب في اول يوم من رجب ولا يحتاج فيها الى خفارة ثم يرتحلون من صحار الى دبا فيعشرهم فيها الجلندي وآل الجلندي ثم سوق الشحر شحر مهرة فيقوم سوقها تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود النبي ولم تكن بها خفارة وكانت مهرة تقوم بها ثم سوق عدن يقوم في اول يوم من شهر رمضان يعشرهم بها الابناء ومنها كان يحمل الطيب الى سائر الآفاق ثم سوق

صنعاء يقوم في النصف من شهر رمضان يعشرهم بها الأبناء ثم سوق الرابية بحضرموت ولم يكن يصل اليها الا بخفارة لانها لم تكن ارض مملكة وكان من عز فيها بز وكانت كندة تخفر فيها ثم سوق عكاظ باعلى نجد يقوم في ذي القعدة وينزلها قريش وسائر العرب الا ان اكثرها مضر وبها كانت مفاخرة العرب وحمالاتهم ومهادناتهم ثم سوق ذي المجاز وكانت ترتحل من سوق عكاظ وسوق ذي المجاز الى مكة لحجهم وكان في العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الاسواق فسموا المحلين وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة المحرمين فاما المحلون فكانوا قبائل من اسد وطيء وبني بكر بن عبدمناة ابن كنانة وقوم من بني عامر بن صعصعة واما الذادة المحرمون فكانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وقوم من بني شيبان وقوم من بني كلب بن وبرة فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع اسلحتها في الاشهر الحرم . . . وكانت العرب تحضر سوق عكاظ وعلى وجوهها البراقع فيقال ان اول عربي كشف قناعه ظريف بن غنم العنبري ففعلت العرب مثل فعله .»

اما المثال الثاني فنقتبس منه بعض الجمل فقط دلالة على حرية المؤلف وردّاً على من يقول ان مؤرخي بني العباس اضطرتهم السياسة ان يحملوا على بني أمية ارضاء لبني هاشم مع ان من اولئك المؤرخين من طعنوا الطعن المبرح بالعباسيين انفسهم وهم معاصرون لهم كل ذلك بفضل الحرية التي تمتع بها العلم في القرون الاولى لبني العباس قال المؤلف بعد ان ذكر طرفاً من سيرة المتوكل على ما هي معروفة ومن قبض عليهم واستصفى اموالهم من عماله · وفي هذه السنة امر المتوكل بلبس اهل الذمة الطيالسة العسلية وركوبهم البغال والحمير بركب الخشب والسروج التي فيها الاكر ولا يركبون الخيل والبراذين وان يصيروا على ابوابهم خشباً فيها صور الشياطين - وقال : وامر المتوكل في هذا الوقت ان لا يستعان باحد من اهل الذمة في شيء من عمل السلطان وان تهدم الكنائس والبيع الحدثة ويمنعوا من العمارة وكتب بذلك الى الآفاق · ولعل ما دعا المتوكل الى تشديد الوطأة على اهل الذمة الانتقام منهم عما كان يأتيه ملوك الروم من غزو الاطراف فقد ذكر ابن واصل في ترجمة المتوكل ايضاً انه لما وجه عنبسة بن اسحاق الضبي لم يتم فيها الا شهوراً حتى اناخت الروم على دمياط في خمسة وثمانين مركباً [illegible] خلقاً من المسلمين

وغرقوا ألفًا وأربعمائة منزل وسبوا من المسلمات ألفًا وعشرين امرأة ومن نساء القبط ألف امرأة ومن اليهود مائة امرأة وأخذ السلاح الذي كان بدمياط والسقط وتهارب الناس فغرق في البحر نحو ألفين وأقاموا يومين وليلتين ثم انصرفوا. ومع هذا وجه «طاغية الروم» رسلًا وهدايا وكانت بذرة بعث إليه أضعافها.

ونرى من خلال السطور أن المؤرخ يكاد يصرح [illegible] حالة المتوكل كلها وصفًا في سخطه على بعض عماله وتعذيبهم وما لاقاه فيه [illegible] بنى المتوكل قصورًا أنفق عليها أموالاً عظيمًا منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج أنفق في البرج ألف ألف وسبعمائة ألف دينار. قال وعزم المتوكل على المسير إلى دمشق ووصف له برد هوائها وكان محرورًا فكتب إلى محمد بن أحمد بن مدبر يأمره باتخاذ القصور وإعداد المنازل وكتب في إصلاح الطريق وإقامة المنازل والمرافد وخرج من سر من رأى يوم الاثنين لعشر بقين من ذي القعدة سنة ٢٤٣ ودخل دمشق يوم الأربعاء لثلاث بقين من صفر سنة ٢٤٤ فنزل تلك القصور فأقام ثمانية وثلاثين يومًا وبلغه [illegible] بعض الموالي من الأتراك فكره [illegible] فشخص عن دمشق إلى العراق ولم يستقر في ولايته [illegible] هذه السفرة إلا في نزهة ولم ير في سفرته هذه شيئًا ولا نظر في مصلحة أحد وأصابت الشام كله زلازل حتى ذهبت اللاذقية بمن فيها وماتت عامة الناس حتى خرج الناس إلى الصحراء [illegible] وما فيها واتصل ذلك شهورًا من سنة ٢٤٥ وانتقل المتوكل إلى موضع يقال له الماحوزة على ثلاثة فراسخ من قصر سر من رأى وبنى هناك مدينة سماها الجعفرية وحفر فيها نهرًا من القاطول ونقل الكتاب والدواوين والناس كافة إليها وبنى فيها قصرًا [illegible] وذلك في المحرم سنة ٢٤٦.

ومما رواه المؤلف في سيرة المأمون [illegible] قوله إن بشر بن الوليد الكندي [illegible] ببغداد كان قد ضرب رجلًا قرف بشتم أبي بكر وعمر [illegible] على حمار فلما قدم المأمون بغداد، وكان متشيعًا [illegible] في الشام [illegible] فقال أي قد [illegible] يا بشر [illegible] فقد أحطت بهذا خمس عشرة [illegible] على [illegible] فقال: [illegible] على هذا [illegible] الرجل قال: بشتم أبي بكر وعمر قال: أحضر له خصومه قال: لا قال: [illegible] قال: لا قال: فلما كان أن يقيم حد القذف بغير حضور خصم قال: لا [illegible] وكنت آمن أن يرى بعض [illegible] قال: لا [illegible]

كافرتان قال : فيقام في الكافرة حد المسلمة قال : لا قال : فهبك فعلت هذا بما يجب لابي بكر وعمر من الحق افيشهد عندك شاهدا عدل قال : قد زكي احدهما قال : فيقام الحد بغير شاهدين عدلين قال : لا قال : ثم أقمت الحد في رمضان فالمحدود تقام في شهر رمضان قال : لا قال ثم جلدته وهو قائم فالمحدود يقام قال : لا قال : ثم شبحته بين العقابين فالمحدود يشبح قال : لا قال ثم جلدته عريان فالمحدود يعرى قال : لا قال ثم حملته على جمل فاطفته فالمحدود يطاف به قال : لا قال : ثم حبسته بعد ان اقمت عليه الحد فالمحدود يحبس بعد الحد قال : لا قال : لا يراني الله ابوء باثمك واشاركك في جرمك حلوا عنه ثيابه واحضروا المحدود ليأخذ حقه منه فقال له من حضر من الفقهاء : الحمد لله الذي جعلك عاملاً بحقوقه عارفاً باحكامه تقول الحق وتعمل به وتأمر بالعدل وتؤدب من رغب عنه ان هذا يا امير المؤمنين حاكم اجتهد في رأيه فاخطأ فلا تفضح به الحكام وتهتك به القضاء فامر به فحبس في داره حتى مات اه .

والكتاب كله فوائد غزيرة ينمّ عن علم صاحبه وناشره فيا حبذا لو همّت العزائم في الشرق لاعادة طبعه على صورة احسن تسهيلاً لاقتنائه لان معظم الكتب التي نشرها علماء المشرقيات قصدوا بها فائدة بلادهم او فكراً خاصاً لهم ولذلك يقللون من النسخ المطبوعة منها ما امكن بحيث يتعذر على ابن الشرق ابتياعها لغلاء اثمانها بالنسبة لما ألف من رخص الكتب في بلاده وكثيراً ما يطلبها فلا يظفر منها بنسخة لانها تنفد في مدة قليلة ولا يصل خبرها الى الشرق الا وتكون قد نفدت او كادت .

تقويم البلدان

قلنا غير ما مرة ان علماء المشرقيات من الفرنسيس قصروا في العهد الاخير عن اللحاق برصفائهم من الالمان وان ما ينشرونه اليوم من الكتب العربية دون ما كان اسلافهم ينشرونه في النصف الاول من القرن التاسع عشر وكتاب تقويم البلدان تأليف السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل صاحب حماة اكبر شاهد على صحة هذا القول فقد طبعه في باريز بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٤٠ المسيو رينود والبارون دي سلان بناظرة سلفستر دي ساسي شيخ المستشرقين في فرنسا الذي افضل كثيراً على العرب والعربية بما نشره من آثار السلف .

وتقويم البلدان في الجغرافية العامة كما يفهم من اسمه عظيم الفائدة من وجوه أقلها ان المؤلف كان من يعد الطبقة الراقية بين علماء القرن الثامن مدقق في كل ما خطه بيده من

صفات فهو في ملوك الطوائف المتأخرين مثله وفضله بمنزلة المأمون من خلفاء العباسيين .

ظهر للناظر انه من كتابه هذا نسخة صححت على المؤلف وكتب عليها بخطه بعض التعليقات او هي نسخة المؤلف بخطه والعناية قد بذلت بها من اصح ما طبع لعلماء المشرقيات

اعتمد المؤلف على ما كتبه ابن حوقل والادريسي وابن سعيد وعلى كتاب العزيزي والقانون ونقل عنهم حتى في جغرافية بلاده وكان ابو الفداء طاف سورية ومصر وقسماً من بلاد العرب من الحجاز ونبع الفرات فما كلامه ثقة فيما كتبه والغالب انه تحدى بطليموس في تقسيماته الجغرافية قال في مقدمته : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله حمداً يليق بجلاله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وبعد فاني طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الارض من الجبال والبحار وغيرها فلم اجد فيها كتاباً موفياً بغرضي فان من الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن كتاب ابن حوقل وهو كتاب مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير انه لم يضبط الاسماء وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض فصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة ومع ذلك لا تحصل به فائدة تامة وكتاب الشريف الادريسي في المسالك والممالك وكتاب ابن خرداذبة وغيرهما وجميعهم حذوا حذو ابن حوقل فيما يعتمده من الغرض اي تحقيق الاسماء والاطوال والعروض واما الزيجات والكتب المؤلفة في الاطوال والعروض فانها عرية عن تحقيق الاسماء وعن ذكر صفات البلدان واما الكتب المؤلفة في تصحيح الاسماء وضبطها مثل كتاب الانساب للسمعاني والمشترك لياقوت الحموي وكتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانساب وكتاب المفصل كلاهما لابي المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي فانها اشتملت على ضبط الاسماء وتحقيقها من غير تعرض الى الاطوال والعروض ومع الجهل بالاطوال والعروض يجهل سمت تلك البلد فلا يعرف الشرقي منها ولا الغربي ولا الجنوبي ولا الشمالي

فلما وقفنا على ذلك وتأملناه جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبها فان ذلك امر لا مطمع في الاحاطة به فان جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل الا على القليل الى الغاية فان اقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع الينا من اخباره الا الشاذ النادر وهو مع ذلك غير محقق وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركسي وبلاد الروس وبلاد السرب وبلاد

الاولق (الاولاخ) وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني الى البحر المحيط الغربي فانها بلاد كثيرة وممالك عظيمة متسعة الى الغاية ومع ذلك فان اسماء مدنها واحوالها مجهولة عندنا لم يذكر منها الا القليل النادر وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب فانها ايضاً بلاد كثيرة الخلق مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم فانه لم يقع الينا من اخبار بلادهم الا القليل النادر وغالب كتب المسالك والممالك انما حققوا بلاد الاسلام ومع ذلك لم يجيدوا عن آثارها ولكن كما قيل ما لم يدرك كله لا يترك كله فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكل وقد جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في كتب عديدة على ما ستقف عليه ان شاء الله عند ذكرها وحذونا في تأليفه حذو ابن جزلة في كتاب تقويم الابدان في الطب وسمينا كتابنا هذا تقويم البلدان اهـ .

بدأ المؤلف بذكر الارض والاقاليم السبعة والابحار والاطوال والخلجان والبحيرات والانهار والجبال قال في الكلام على ترتيب كتابه : اما ترتيبه فانه بجدول على وضع التقاويم وقد ذكرنا فيه الاقليم الحقيقي والاقليم العرفي في بيتين والمراد بالاقليم الحقيقي احد الاقاليم السبعة المتقدم ذكرها والعرفي كل ناحية او مملكة تشتمل على عدة كثيرة من الاماكن والبلاد مثل الشام والعراق وغيرهما . قال وقد جعلنا في الجدول بيتاً لضبط الاسماء فان في هذه الاسامي اسماء اعجمية لا يهتدى اليها بغير ضبط وكذلك في الاسماء المشهورة اسماء قد غيرتها العامة تارة بتغيير الفتحة الى الكسرة او الضمة وبالعكس وتارة بزيادة الحروف في الكلمة وتارة بالتنقيص مثل ما يقولون في تبريز توريز وتستر ششتر ومثل ما يقولون تدمر بضم التاء وهي بالفتح فلذلك احتجنا الى ضبط الاسماء وذكرنا في الهامش من فوق وتحت كلاماً على ذلك الاقليم وتحديده وذكر بعض مسافاته ونحو ذلك واما ترتيب الاماكن وتقديم بعضها على بعض في الذكر فانه امر لم يتهيأ لنا فيه ترتيب يرضينا فتبعنا فيه ابن حوقل وابتدأنا بجزيرة العرب لكون بيت الله الحرام وقبر نبيه عليه افضل الصلاة والسلام بها .

ومع ان مؤلفنا اعتذر بتعذر الوصول الى اخبار بلاد الافرنج فقد ذكر منها جملة صالحة فذكر منها مملكة بولية في بحر الروم عند خليج البنادقة من غربيه وهي تقابل مملكة الباباسية التي من البر الآخر وملك بولية كان يقال له في زمانه الريدشار وذكر بلاد قلفرية والرا (الورة) والمحموط افرنس والتسقانة (ايطاليا) واستنبرى والروس وافرنسة والالمانية وذكر مدينة باريز فقال : مدينة بريس قاعدة فرنسا وهي ثلاث قطع

كما هي مدينة الباب الوسطى التي في الجزيرة الانكلسية سلطان الفرنج والجنوبية لجهة الشمالية لسائر قواسيهم وتجارهم ورعيتهم. وذكر عن ابن سعيد بلاد الباشقرد وهم ترك جاوروا الالمانيين تحت عهد منوئيل وهم مسلمون من جهة فقيه تركماني بصرهم بشرائع الاسلام. واكثر عمائرهم على نهر دونا وفي جنوبيه قاعدتهم قرات وهي مما دخله التتر وخربوه واهلكوا اهله وفي شرقيها بلاد الصقز (الخز) اخوة الباشقرد نصروا مجاورة الالمانيين ولهم مدائن وعمائر على النهر الكبير مستقيمة وقاعدتهم مدينة ترتبوا وذكر بلاد البيهردية وجتوة وبيزة والبندقية وروينة وبرشلان (قاعدة امة البرجان) قال فيهم وكان لهم شهرة وبأس في قديم الزمان فاستولت عليهم الالمانية وابادوهم حتى لم يبق منهم احد ولا بقي لهم اثر. وذكر مدن اثينة وقسطنطينية وتسمى بوزنطيا ومافذونية وصقلي وابزو وطرنو وبلاد (بلغار) وطاوزة قال ابن سعيد وفي شرقي بردال مدينة طاوزة يقال ان صاحبها الفرنجي في الجبال التي في شماليه وشرقيه ما ينيف على الف حصن وهو قريب من صاحب ترينة والنهر في جنوبيها يصعد منه مراكب البحر المحيط اليها بالقصدير والنحاس اللذان يجلبان من جزيرة انكلطرة وجزيرة ارلندة ويحمل على الظهر الى تريولة ومنها يحمل في مراكب الفرنج الى الاسكندرية. وذكر مدينة مرشيلية ومدينة سبقوا في شمالي جبل جرواسبا قال فيها نقلاً عن ابن سعيد انه يصنع فيها السيوف الالمانية المشهورة ولها معدن حديد بجوارها ويقال ان في مكان منه معدن حديد مسموم يصنع منه السيوف والخناجر لا يبيع الملوك اكثرها امرهم وفي شرقيها وسمت عرضها مدينة المعبر (معدن ؟) وهي مخصوصة ببناء ثالية وحكمائهم. وذكر عرار ولوشيرة وسيتو ومشقة وبرغاذا . ومن هذه المدن ما دثر الآن او تغير اسمه .

واصارى القول ان كتاب ابي الفدا من اصدق كتب الجغرافية العربية التي أُلفت في القرون الوسطى وكأنها أُلفت في هذا القرن لم ينقص صاحبها الا انها مع ذلك حجة ثقة في كل ما روى تكاد لا تقرأ له خرافة يكرها ظرفك وتنالي ارتقاء العصر الحاضر فياحبذا لو صحت همة احد لطبعه فان نسخه فقدت ولا تكاد توجد الا في مكاتب الخاصة ودور الكتب العامة

* * *